حـــوار حـــول الموت

شخصيات المحاورة:

صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي سيدة ثرية جميلة مثقفة.

سليمان: مثقف يحمل لـواء العقـل وسيادة قوانينه.

حســـام: شاعرٌ مبدع يملك ثقافة موسوعية، محبط.

ميشيـل: أستاذة في معهد رقـــص.

ناريمان: صاحبة .Pub

يوسف: عميـد متقاعـد.

صونيا: بكم تشرق شمس هذا المنتدى، وبكم ينتشر النور ليستضيء به القريب والبعيد، من له عينان فليبصر الأفكار التي تتجسد كلمات من نور ونار، ومن له أذنان فليسمع صوت الحقيقة مجلجلاً على شفتي العقل والوجدان، إنه منتدى جدلية صراع النور مع الظلام، صراع الصدق مع الكذب، صراع الحرية مع العبودية، وكل ذلك في إطار صراع الحرف مع المعنى وصراع النفس مع الجسد.

حسام: أنا كشاعر حروفي لا تصارع المعاني، ونفسي العاشقة للجمال أينما تمظهر لا تصارع الحَوَرَ في عيني صبيّة حالمة ولا التوثب في نهدي صبيّة ثائرة، ولا التأرجح في ردفي صبيّة غاضبة. بين نفسي وبين الجسد الأنثوي تناغم متبادل، نفسي تعتبره ذروة ما أنتجته الطبيعة جمالاً وكمالاً، والجسد يعتبرها الناطقة الرسمية بجماله وكماله.

ميشيل: وحدها الموسيقى تستطيع أن تلغي ثنائية الجسد والنفس، إنها الأم التي يولد التناسق من رحمها المقدس، بالموسيقى نؤالف ما تنافر، ونجمع ما تبعثر فينبعث التناسق وينتشر ويهيمن. لا أحد يستطيع أن يفهم معنى التعدد في قلب الوحدة إذا كان لا يملك ثقافة موسيقي.

ناريمان: في المرقص الذي أمتلكه وأديره تنبعث الموسيقى صاخبة مجلجة تجعل النائم من الشهوات يستيقظ والمختفي من المبكوتات يظهر، إن كان ثمة تناسق في هكذا موسيقى فهو تناسق وأنغام مع صراخ الأجساد الجائعة الى الشهوات المحمومة واللذات السادية. أما تناسق الأجساد مع النفوس، تناسق الأرض مع السماء، تناسق الجسماني مع الروحاني، فهذا ما لم ألحظه أبداً.

سليمان: لا يمكن تخيّل وجود وموجودات بدون صراع أضداد، صراع الأضداد في جوهر الشيء الطبيعي هو الذي يوجد هذا الشيء الطبيعي، في اللحظة التي تتآلف فيها الأضداد يوجد الشيء، وفي اللحظة التي تعود فيها الأضداد الى التنافر يختفي الشيء أو يتحول. إنها قصة تآلف الأضداد في وسط حلبة صراعها، وهذا التآلف هو التناسق الذي تحدثت عنه ميشيل. فاللحن الجميل مثلاً هو ثمرة تناسق الأنغام الطويلة الحادة مع القصيرة الناعمة مع المتوسطة المخملية، فالتآلف يعطي

للـّحن وحدتــه وإيقـاعه. أنت تظـن للوهلة الأولى أنّهناك نغماً واحداً ينبعث، ولكنك إذا عرفت أسرار علــم الموسيقى وجدت أنغـاماً متضادة متصارعة تآلفت في لحظة معينة فأنتج هذا التــآلف بين المتضادات هذا اللحــن الجميـل.

صونيا: كلنا يعـرف ان الجسد البشري مركب مــن أربع طبائع متضادة متآلفة بنفس الوقت، الحـرارة والبرودة متضادتان، والرطوبة واليبوسة متضادتان، ولكن الحرارة واليبوسة متـآلفتان وكذلك الرطوبة والبرودة. والجسد وحدة لها بصمتها الواحدة التي تميزها عن غيرها من الأجساد.

حســام: وكلنا يعرف أيضاً أنّ صحة الجسد هــي فــي توازن هذه الطبائع الأربعة أو اقترابها مــن التوازن الى أقصى حــدّ ممكن. وأنّ بداية المرض هو في بداية اختلال هذا التـوازن، حتى إذا وصلنا الى ما يعرف بالتنافر التام بين الطبائع كان معنى ذلك إنحلال تركيبة الجسد وهذا ما يعرف بالموت.

ميشيل: ومن قــال أن هذه الطبـائع ليست موجودة في النفس أيضاً، فالذكاء والإبداع طبـعٌ حــار، والطمأنينة والإستقرار فــي اليقيــن طبــعٌ بارد، أما التواضع فهو طبـعٌ رطب، والعنــاد والثبوت على موقف واحد طبعٌ يابس. وسلامة النفس هي في توازن هذه الطبــائع داخلها أيضاً، ومرضها هــو فــي اختــلال هذا التوازن، وطبائع النفس تتماهى مع طبائع الجسد، ولكن الفرق بين الإثنين أنّ الجسد ينحلّ ويفنى بالتنافر بين هذه الطبــائع، أما النفس فتبقى خالدة خلــود الدهــر.

سليمان: الجسد متواجــد مـن الطبائع الأربعة ولذلك هو كيان مركب، وكل المركبات مهما طــال زمن تركيبها أو قصر سيأتي زمــن تتحلل فيــه الى العناصر التي ركبت منها، فالمركبات فــي عملية تحــول دائم، أما النفس فهي ليست مركبة مــن الطبــائع الأربعة بـل هي جوهـر بسيط روحاني، ولأنها جوهر بسيط روحاني فهي غير قابلة للتحلل والفنــاء، لأن البسائط لا تتحــلل ولا تفنــى. ولكــن هذا لا يعنــي أنّ النفس لا تحتوي على قوة الطبائع الأربعة، فالحرارة فيها هي في حركتها للإقبال على الشيء أو الإبتعــاد عنــه، والسبب الرئيسي الذي ولّــد الحرارة فــي جوهـر النفس هو حبها وعشقها لمبدعها، وشوقهـا للإنجذاب الــى مبــدعها، فالحــرارة فيها شوقيــة عشقيــة

وليست طبعاً ماويــاً، والبرودة في النفس هي سكونها واستقرارها في معرفة مبدعها والإطمئنان فــي يقينها الذي ولدتــه حــرارة العشق والوجــد، لأن الأضداد تتولد من بعضها، ثم تتفاعل الأضداد مع بعضها فحرارة الحب تفاعلت مع برودة اليقين فولدا قــوة النــور العقلاني الذي تعقــل به النفس ذاتها وتعقــل ما يشرق عليها مــن أنــوار مبدعها وتعقــل سائــر الموجودات، وفــي قوة النـور تغلب حرارة الحب على برودة اليقين، ثم تتفــاعل الأضداد ثانيــة فيتــولد سكـون التواضع وبه تنمو المعارف وينمو الإقبــال على الفضائل والبديهيات العقلانية والبراهين المنطقية والمساعي الخيرة من تسامح وعطاء ورغبة بالعمل والإنتاج، وفيه تغلب برودة اليقين حرارة الحب. معنى كل ذلك أنّ الطبــائع فــي النفس هي قوى لجوهر النفس وليست عناصر تتركب منها النفس.ولهذا نقــول أصابت ميشيل فــي أفكارها نصف الحقيقــة وغاب عنها النصف الآخــر.

حســام: أنــا شخصياً نفسي لا تعترف إلا بطبيعتين فقط، حرارة الشوق في الإنجذاب الى الجمال وبرودة اليقين في الإطمئنان الى ذلك الجمال والسكون تحت جناحيه. أما جسدي فحدّث عــن طبائــعه ولا حــرج، كلما تهادى طبعٌ تولد منه طبعٌ آخر، وكلها طبــائع تتحرّك باتجاه مائدة ملـذات الجمال المحجورة عن أعين الناس الذين مملكتهم ليست مــن هــذه الدنيا المكشوفة على أمثالي وأصدقاء أهــل الدنيا مثــل ناريمان.

ناريمان: أنا لا أتعب رأسي بهذا الجــدل العقيم، بل لا أتعبه بأي جدل على الإطلاق. إنــي أعيش بأحــاسيسي بمشاعــري وبغــرائزي أيضــاً، هذا مــا تعلمتــه مــن رواد مرقصي، الجميع يتكلـم بلغة الجسد وما يختزنه من مواد كبريتية ملتهبة، وفي بعض الأحيان مـن نظرات شاردة وأطياف حزينة ووجوه شاحبة. إني أراقب الأجساد جيداً كيف تلتهب وتحتــرق ثــم تهمــد وتغــدو كـومة مــن أجنحــة لتطير فيها الى البعيد، والأجساد التــي تنجذب الــى العتمة والرطوبــة اللزجـة والوحول الآسنة لتغرق فيها وتستريح، أما النفــوس وحــرارة حبهــا الإلهي وعشقها للمطلــق وقــوة أنوار عقلها ومعارفه وعرفاناتها وشطحاتها ولمعاتها فهذا ما لم ألحظه أبداً لا فــي نفسي ولا في أنفس رواد مرقصي.

صونيا: أعط مـا لقيصر لقيصر وما لله لله، فمن حـقّ الجسد علينا أن نصونه نظيفاً مهذباً خـالياً مـن فضلات الشحم واللحم، رشيقـاً كالسهم الحاضـر للإنطـلاق الـى الأعلـى، مـن حـقّ الجسد علينا ألا نحـرمه مـن ملذات المـأكل والمشرب والجنس والـراحة والإستحمام مستلهمين فـي ذلك قـوانين الطبيعة، والأهم مـن كل ذلك أن نحميه مـن الجراثيم والفايروسات التي تسبب له الألم وتمنعه من القيام بواجباته التي وجـد مـن أجلها. ومـن حـقّ النفس علينـا أن نجعلها تتمتع بملذات اكتساب المعرفة والتفتيش عـن الحقيقة والتمتع بممارسة العدالـة والتنعم بالتـواصل مع العقل الكلي مدبـر شؤون هذا العـالم بشطريه العاقل وغير العاقل، والذي هو الباب الذي تلج منه النفس الإنسانية للتـواصل مع الله وتذوق حلاوة العشق الإلهي الذي هـو ينبـوع كل شوق وكل عشق مهما تقلبت تمظهراته.

ميشيل: وكيف يكـون الجسد رشيقـاً كالسهم الحاضـر للإنطـلاق الـى الأعـلى إلا بالتناسب بيـن الأضداد الذي هـو مركبٌ منها؟ والتناسب لا يُعرف إلا من خلال علم الموسيقى فلكي يكون الجسد متناسباً يجب أن يكون لحناً موسيقياً يعزف على أوتار الطبـائع وعلى المايسترو الذي هو قـوة الحيـاة في ذلك الجسد أن يوازن ويناغم بين هذه الطبـائع ليولّـد التناسب.

حسـام: هـل قـوة الحياة في الجسد شيءٌ والنفس شيءٌ آخر؟ طالما سألت نفسي هذا السؤال، فأنا مـن جهة أعلم أنّ قوة الحياة تموت بموت الجسد، ومن جهة أخرى أعلم أنّ النفس جوهـر روحـاني بسيط غيـر قابـل للفنـاء. ولكني لا أعلم ما هي العلاقة بالضبط بين قـوة الحيـاة وبين النفس، هـل همـا شيءٌ واحـد، أم شيئان منفصلان، أم يوجـد إتحاد كونفدرالي بيـن الإثنين.

يوسف: عندما وصل الأمـر الـى مبـدأ القوة أصبح من حقي أن أتدخل لأن الجندي وكما قـال أفلاطون منذ مئـات السنين يمثـل القوى الغضبية في النفس البشرية، إنه عاطفـة الدولـة وبالعـاطفة يكون الإنتمـاء الـى الأرض والمجتمع، وتكـون الغيرة والحمية في الدفاع عن كرامة الأرض وكرامة المجتمع. أنا شخصياً أعتقد أنّ النفس هي قوة الحياة ولا شيء إلا قوة الحياة. وكلنا يعلم أنّ القوة طاقة وأنّ الطاقة لها كمية تقـاس بها تمـاماً كما المـادة، وأنـه يمكن تحويـل الطـاقة الـى مـادة والمـادة الى

طاقــة، وبالتــالي هذا هــو ســرّ العلاقة الجـدلية بين النفس والجسد، فمادة الجسد في ظروف معينة تتحــول الــى مــادة جسدية، وبالتــالي هنــاك توحد ووحدة بين الجسد والنفس ولا يوجــد أي ثنــائية.

سليمان: هــذا الكلام صحيح بالنسبة للنبــات والحيــوان، ولكنــه لا يكشف إلا جـزءاً بسيطاً مــن الحقيقة بالنسبة الى الإنسان. قوة الحياة في النبات والحيوان هي ما أطلق عليه مجــازاً بالنفس النبــاتية المسؤولة عــن النمو والتــولد وبقــاء النــوع، وبالنفس الحيــوانية التــي تشمل نشاط النفس النبــاتية وتزيد عليها في مسؤوليتها عن الحركة وضبط عمــل الحــواس الخمس ونشاطات الإحساس والشعــور والتخيــل الــى مدى محـدود، وتعلم بعض الحركات والأعمال الى مدى محدود. أما الكائن العاقل الإنسان فهناك نفسان وليس نفس واحــدة. النفس الأولــى هي النفس الحيوانية وهي المسؤولة عــن النمــو والتــولد وعمــل الحواس الخمس وجميع آلات الجسد التي تقـوم بخدمته وتحافظ على بقائــه وهذه النفس الحيوانية في الإنسان متطورة أكثر مما هي في بقية الحيــوات وذلك لسبب بسيط وهــو أنّ الجسد الإنساني هــو أكمــل كائـن حيّ أنتجته الطبيعة، ولذلك فنفسه الحيوانية هي أكمل النفوس الحيوانية، الأمر الذي جعلها تصل فــي نشاطاتها الى تمكين الإنسان من إتقــان الصناعات ومن حفظ المعلومات وتخيل الكثير من الأوهـام أو الأشياء التي تركبت من الصور التي إلتقطتها الحواس الخمس وخزنتها فــي الحس المشترك. وهذه النفس الحيــوانية تموت بموت الجسد وهي غير خــالدة لأنها ليست أكثــر مــن قــوة الحياة في الجسد. أما النفس الحقيقية التي يملكها الإنسان فهي النفس النــاطقة، والأصح القــول النفس العـاقلة، وهي قبسٌ من نور الله الشعشعاني حيــة عاقلــة حــرة مريــدة ومسؤولة. حيـة بحياة الله غير القابلة للتلاشي والفنــاء، وعــاقلة بعلم الله فهي تعقــل ذاتها وتعقل ما يفيض عليها من النور الإلهي وتعقــل سائــر الموجودات، وهــي حــرة لأن الله يعلــم بعلمــه الذي يحيط بالــزمان والمكان أنــه بدون مبدأ الحرية يسقط مبدأ العقل وتغدو النفس مجرد "روبوت" وهذا ما لا يريــده الله للإنسان الذي أوجــد الوجــود من أجــل خدمتــه وتمكينه من السعي للوصول الــى كماله، وأوجد الإنسان من أجل معرفته تلك المعرفة التي تثمر الشوق والوجــد والحب للإنجذاب الــى الله والإستمتــاع بلذة ذلك الإنجذاب، وهــي لــذة لا

يمكــن قياسها بأي ملـذات عاديــة لأنها لــذة إدراك المعلــومات الإلهيــة والفضائــل البرهانية والكليات المجردة والبديهيات المنطقية التي لا يحيط بها الزمان والمكان.

حســام: عنــدما يتقــاطع المحـدود مع اللامحدود والجـزئي مع الكلــي والمــادي مع المجـرد، أنا أفهم ذلك لأني أعيشه في بعض تجاربي الشعرية، أعيش إحساس تقاطع الجمــال الجزئــي الـذي أراه وأتحسسه فــي عينــي صبيــة وفــي شفتيهــا ونــاهديها وساقيها، بالجمــال الكلــي الذي أتحسسه بحــاسة أشعـر بأنها غريبـــة عن حواسي الخمس، ولكنها موجـودة فــيّ وهي لا تمارس عملها إلا فـي لحظات نادرة، لحظات أكـون فيها محرراً مـن أي رغبــة أو شهـوة أو نــزوة أو عاطفـة منحازة أو إنتماء محـدود.

صونيا: كلام سليمان يعنــي أنّ الإنسان يمـوت ولا يمـوت بنفس الوقت، فهو يموت بجسده ونفسه الحيــوانية وذلك لأن جسده ونفسه الحيــوانية قـد تركبا مـن الطبــائع الأربعــة ومـن طبع الهيولي الخامس الذي يمدّ الطبائع الأربعة ويضبط نظامها وكـل مركب مصيره المــوت والتحــول مهما طال به الزمن. ولا يموت بنفسه العاقلة التي تنتقل عند موت الجسد الى جسد آخر مولود لتوه لتمارس حياة أخرى بتجارب جديدة وبعقل مكتسب جديــد فــي ظروف جديدة ومجتمعات جديدة ومفاهيم جديدة وكل ذلك لسبب بسيط أنّ النفس العاقلة قبسٌ من نــور الله خــالدة بخلــود الله.

ميشيل: أول مــن وضع سلمــاً للموسيقى هــو فيثــاغورس الذي استنبط ذلك من علم العدد، وهــو الذي قــال بوحدة الكــون إبتداءً من الفلك المحيط وحتى كوكب الأرض والطبــائع الأربعة والإستقصات الأربعة، وقــال أنّ قـوانين العقل الكلي تضبط نظام هذا الكون من رأس الهرم حتى قاعدته وأنّ لكل شيء سبب يتبع سببه.

يوسف: وبنــاءً على ذلك يصبح الكون غائـياً وجد من أجـل تحقيق غاية معينة، وهذا ما لا أقر به وأعترف، فالكون وجد بالصدفة من تلاحم الذرات التي تسبح في الفراغ الكبيــر فــي ظـروف معينة وكان مــن الممكــن ألا تتلاحم وتبقــى ذرات تسبح فــي الفراغ، والحياة وجدت بالصدفة أيضاً أوجدتها التفاعلات بين الذرات والطبائع وكان مــن الممكن ألا تتفــاعل، ولذلك علينا أن نتقبل الأمور كما هــي، وبما أن المصادفـة

أوجدتنا كما نحن موجودون علينا أن نستغل وجودنا فنتمتع بأقصى قدر ممكن ونشرب كأس اللذة والسعادة حتى الثمالة قبل أن يخفينا الموت عن هذا الوجود. وبما أنّ اللذات التي تسعدنا هي المأكل والمشرب والجنس واقتناء المال والأرزاق وإنجاب الأطفال والسعي الى الرئاسة، فلنفعل ذلك وبفرح عظيم قبل أن نصبح حفنة من تراب.

ناريمان: هذه إستنتاجات أحبها ولكني في قرارة نفسي أخاف من تداعياتها، فإذا اعتبرنا أنّ الإنسان يجب أن يمتع نفسه بأكبر قدر ممكن من الملذات قبل أن يتحول الى حفنة تراب، فقد يأتي أناس يقولون أنّ أقصى الملذات عندهم هي السلطة، والسلطة كما عرفناها في هذا الشرق العتيق ليست إلا التسلط على الآخرين بمصادرة عقولهم وحرياتهم ووضعهم تحت نير الإستغلال والمهانة. واسمح لي يا صديقي يوسف أن أقول لك أنكم أنتم معشر العسكريين قد اقتنصتم السلطة في أكثر بلدان هذا الشرق اغتصاباً وكانت حجتكم الدفاع عن كرامة الأرض والمقدسات المستباحة ولكنكم لم تفعلوا من ذلك إلا غسل الأدمغة بالأكاذيب والدعايات، كل ما فعلتموه هو أنكم حولتم البشر من مخلوقات عاقلة حرة مسؤولة الى "روبوتات" لا حياة فيها ولا عقل ولا أيّ إحساس أخلاقي، إنها ماكينات إنتاج وفقاسات تزودكم بالأطفال العبيد حتى أصبحت أخلاق المجتمع بأكمله أخلاق عبيد وليس أخلاق أسياد.

ميشيل: ما قلته يا صديقتنا ناريمان ، وأظنه خرج عن غير قصد منك أنت التي لا تؤمنين إلا بما يمليه عليك الجسد، هو قولٌ حقّ فلا يجوز للسلطة تحت أي ذريعة أن تقع في أيدي العسكر لأنهم قوة غضبية وليسوا قوة عقلية، السلطة أيضاً يجب ألا تقع في أيدي التجار لأنهم قوة غريزية نفعية غايتها دائماً الربح والاستمتاع بذلك بأي وسيلة، السلطة يجب أن تكون للعقلاء الذين يدركون بالعقل والحدس معاً معنى التوازن والتناغم والتناسق بين جميع طبقات المجتمع واتنياته وشرائح إنتاجه، والأهم من كل ذلك التناغم والتوازن بين الرجل والمرأة.

يوسف: ليس من الضرورة أن تكون ملذات الإنسان وطموحاته على حساب مصالح الآخرين وكراماتهم، هنا يمكن أن نوازن بين مصالح الجميع وكرامات الجميع،

ولكن أنا شخصياً لا أعـرف كيف يتـم ذلك، فلا الأنظـمة الرأسماليــة الديموقراطيـة استطاعت أن تفعــل ذلك، ولا الأنظمة الإشتراكيــة المـادية استطاعت أن تفعل ذلك، حتى ولا الأنظمة التــي لها خلفيات دينيــة. ضمن هذا الواقع، العدالة ليست أكثر من حلم جميـل حلم بـه أفلاطـون وأشبــاهه مـن المثاليين، ورندح به الشعراء الخياليون قصائدهم ومشوقاتهم.

صونيا: كأنك تريــد أن تقــول أنا إنسان واقعي أعتبــر المــوت نهــاية حتميــة للحياة وبعد المــوت لا يوجــد إلا العدم، وكل ما نسجته الأديان والفلسفات والأدبيات حول هذا الموضوع ليس أكثــر من خيوط عنكبوتية واهيــة لا تثبت تحت لفح رياح الواقع وعواصفه.

ناريمان: بصراحة أنا أحــاول أن أقنع نفسي بمسألة أنّ النفس خــالدة لا تمـوت تسبح فــي الفضاء الرحب منتظرة يــوم دينونتها، ولكني لا أفهم كيف أنّ النفس تعيش فــي الجسد أعـواماً معـدودات ثم تنتظــر فــي الفضاء الرحب منعـزلة عــن الجسد آلاف الأعوام وربما ملايينها بــل مليارتها حتــى يأتــي يــوم دينونتها لتتحاسب علــى تلك الأعــوام القلائــل التي عاشتها فــي الجسد وما فعلته في تلك الأعــوام.

حســام: وربما كانت تلك الأعــوام المعدودات برفقــة الجسد أعوام قهر وارتهان في كنف أسرة فقيرة معدمة أو في كنف أسرة مريضة يأكل أفرادها التلوث والعدوى، أو أسرة مستبدة ظــالمة منعت أفــرادها من تطويــر أنفسهم والتعبير عــن ذواتهم. وهنا نقــول هل أعطيت الفرص العادلة لكل النفوس لكي تطــور ذواتها وترتقي في حقول المعرفة والعــرفان والمسلك، وهــل ترك لها الجوع والفقر والاستبداد والقهر فرصة لكي تعمــل علــى ذواتهـا فتصقــل جــواهرها لتكــون قــادرة على استقبال أنوار الله الشعشعانية، أو هــل أعطيت لها الفرص لتتواصل مع العقــل الكلي الفرص الفعـال وتتعرف الــى ملــذات معرفـة الفضائــل البــرهانية والبديهيات المنطقيــة والكليــات المجردة. كل هذا يجعلني أعود الى أقوال سليمان في هذا الموضوع، ولكني ما زلت أراها غامضة وتحتاج الى مزيــد من التوضيح.

سليمان: الأمـر بكـل بساطـة أنـه لا يمكـن تصـور هـذا الوجـود إلا بموجود قد أوجـده، وأنّ هذا الموجـد قـد أوجـد الوجـود بنـاءً علـى قـوانين تنضبط فيها كل الموجودات، وإلا لجـاز لنا أن نتصوره طفلاً علـى شاطيء بحـر يبني قصوراً من الرمال ثم يعـود ليهدمها لا لشيء إلا ليتسلى ويعبث، وحاشا الله مـن العبث، وغايـة هذا الوجـود هـي بالطبع الإنسان الذي جعل اللهمنه عالماً صغيراً يحوي كل أسرار العـالم الأكبـر، ففيـه مـن الله النـفس النـاطقة الحيّـة العاقلـة الحـرّة المسؤولـة الأخلاقيـة، وفيـه من الأجـرام والكواكب والطبائع والإستقصات وذلك بنفس النسب المئـوية الموجودة فـي هذا الكـون الرحيب.

ناريمانهل كلامك يعني أنّ في الإنسان ذهباً وفضة ونحاساً وحديداً وفحماً وتبرولاً وناراً وهواءً وماءً وتراباً بقدر ما في هذا الكوكب الأرض وحسب النسب المئوية؟

سليمان: هذا أمـر طبيعي يعرفـه أخصائيو المختبرات جيداً فما عليك إلا أن تسأليهم لتأخذي الجـواب الشـافي.

حسـام: والنـار يا صديقتنا ناريمان، ألا تشعرين فـي منـاسبات معينـة بنـار تلتـهم أحشاءك وتفـح لهيباً بين أضلعك وتقذف حممها في دم شراييناك. أول البارحة عندما زرتك فـي مرقصك وكان برفقتك ذلك الشاب الممشوق الأسمر رأيت عينيك تقذفـان حمماً، والشرر يتطايـر منهما، وسمعت لهـاث نهديك حتى إني تجنبت إلقاء التحية عليك أو الإقتـراب منك كي لا تظنيني متطفلاً، ولكني تمنيت أن أكـون البديـل لذلك الشاب الوسيم بكل ذرة في كيانـي.

ناريمان: أنتـم الشعراء تـرون الأشيـاء بأوهامكم لتنسجوا منها قصائـد ومشوقـات تثيـرون بها أحاسيس الناس وشهواتهم، إنكم الضالون الذين في كل واد يهيمون.

ميشيل: إذا كان لهلث نهديها وشرر عينيها متناغماً مع حـرارة نفسها الروحانية فهذا شيءٌ جميل، وأنا شخصياً أغبط ناريمان على ذلك إذا كانت قد عاشته فعلاً وأعتبره حالةً إيجابية ولا أعتبره حالةً سلبية، والحالات الإيجابية ينتج عنها الخيـر ولا ينتـج عنها الشـرّ.

سليمان: الموضوع أدق مـن ذلك فعندما تتقـاطع حـرارة النفس العاقلـة مع حـرارة الجسد يثمـر هذا التقاطع حالة واقعية، فإذا استطاعت حرارة النفس العاقلة في لحظة التقاطع أن تجذب حرارة الجسد إليها أثمر التقاطع شرارة عبقرية ولمعة خلق وإبداع أو شطحـة صوفيـة أو ومضة وجـد وهيمـان علـى طريقـة السهرودي وأبي يزيد البسطامي. أما إذا استطاعت حـرارة الجسد فـي لحظة التقـاطع أن تجـذب حـرارة النفس العـاقلة إليها كانت الثمـرة شبقلً جنسياً أو هوساً عاطفياً أو حمـاسةً غضبية تجتـاح الكيان برمته لتترجم لدفاعاً الى شهوة أو الى قتال أو الى تعدّ واغتصاب وما شـابه ذلك.

يوسف: أنا لا أقـول حـرارة الجسد بـل أقـول حرارة قوة الحياة في الجسد، فالحياة حـركة والحـركة تولّـد الحـرارة، بقوة الحياة نحن نشتهي ملذات المأكل والمشرب ومراقصة النساء ومداعبتهنّ قولاً وفعلاً، ونشتهي كذلك العمران والحـرث والتملك بكل أنـواعه، ونحاول أن نحطم كل الحواجز التي تعترض شهواتنا عندما تصبح تلك الشهوات جـامحة.

صونيا: أفهم مـن ذلك أنّ الإرتمـاء فـي أحضان المرأة هو بطريقة لا واعية شعوراً بالأمـان يبعـد الرجـل عـن الإرتعـاد خـوفاً وهلعـاً من الموت،وكذلك إقتناء المال والأرزاق، فهل صحيح أنّ الجـري وراء المـال والعمران والسلطة ليس إلا محاولة تجنب الإلتقاء بشبح المـوت وجهـاً لوجـه؟

هـل نمـارس الحبّ والجنس ونتفـانى فـي العمـل ونبتكـر إطـارات جديدة للتفاعل الاجتماعي كل ذلك لكي نشعر بالأمـان أو لكـي نشغل أنفسنا عن ملاقاة شبح الموت وجهاً لوجـه؟

ميشيل: أعتقـد أنّ ما قالـه يوسف هـو وجهٌ من الحقيقة، أما وجهها الآخر فهو هرب الإنسـان مـن ذاتـه باتجاه المـأكل والمشـرب والجنس والمـال والسلطة وما شابه، الإنسان يخاف أن يواجه نفسه لأن المواجهة معناها أنّ معرفته بأنه فان وليس بخالد، معرفته بأنّ النهـاية هي المـوت وقد تكون النهاية بعد لحظات، فلا أحد يملك ضمانة أن يعيش حتى يـوم غـد. إكتشاف الإنسان لذاتـه بأنه مخلـوق فان وعدم قدرته على

تحمل فكـرة الفنــاء، تجعله يهـرب الــى الملذات، أو تجعله يتوهم أنّ المال والملكية والسلطة هي خلـود غيـر مباشر له وكل ذلك أكاذيب وأباطيـل.

سليمان: وعـادت الدائـرة الــى نقطــة البيكار، كل هذا التخبط سببه عدم التمييز بين النفس الحيـوانية التــي تمـوت بمـوت الجسد لأنها نتـاج الطبائع الأربعة تماماً كما الجسد، وهــي ما يسميها يوسف قـوة الحياة في الإنسان، وهي المسؤولة عن الشعور والإحساس واللذة أو الألم، فهي التي تدبـر شـؤون الجسد بقـوانين جبـرية لا علاقة للعقـل بحريته ومسؤوليته بها. أما النفس العاقـلة في الإنسان السوي فهي التي يجب أن تقـود الجسد ونفسه الحيوانية لكي تتناغم طبائع الجسد وطبائع النفس الحيوانية مع طبــائعها وليس العكس. بمعنى آخـر أقــول أنّ الله والطبيعة يتقاطعان في الإنسان، فنفسه العــاقلة هــي قبسٌ مــن نــور الله مختــزن فـي جوهره خواص الله في الوعي والحريــة والخيــر والشرف والعدالـة والعفـة والمــروءة، وهذه النفس العاقلة جوهر نوراني بسيط خــالد، وجسد الإنسان الذي تدبــر شؤونــه النفس الحيــوانية هــو نتاج الإستقصات والطبــائع الأربعــة التي تغذيها الهيـولي أي هـو معادلة مركبة من النار والهــواء والمــاء والتـراب، ونفسه الحيوانية مركبة من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة تغذيها جميعاً الهيولي. يميـل الإنسان الى الطبيعة الحيـوانية عندما تستطيع النفس الحيــوانية أن تقهر النفس العــاقلة وتجعلها خادمة لها، وبالعكس يميل الإنسان الــى الطبيعة الإلهيــة عندما تستطيع نفسه العــاقلة أن تقهـر النفس الحيوانية وتسخر قــواها لخدمتها.

صونيا: كل هـذا الشـرح والإسهاب لا يستطيع أن يزيــل تلك الـرعدة التي نحس بها عندما نتذكر أنّ هنـاك موتـاً، أو عندما نفكر في ماهية الموت رغم أنه ظاهرة حياتية نراها ونعيشها كل يــوم.

ميشيل: هرب الفـراعنة مــن فكرة الموت بأن ابتكروا فنّ التحنيط وتفننوا في عمارة المقابــر وكنــز الكنــوز الى جانب الجثث متـأملين أن تعـود إليها الروح مرة أخرى لتستأنف نشاطها الحيــاتي من جديـد.

ناريمان: لم ألحظ فـي حيلتي سخفاً مكلفاً وغـالي الثمن مثل هذا السخف، أن نسخّر آلاف الناس لبناء مقبرة، ثم نسخّر آلافاً أخرى لتحنيط جثة، ثم نضحي بثروات هائلة لندفنها فـي القبور بحجة أنّ الروح ستعود إليها لتمارس الحياة من جديد. أنا لا أفهم سخف أولئك الناس رغم عبقريتهم في فن العمارة والتحنيط كيف أنهم يفرغون جثث موتـاهم من جميع محتوياتها ويفرغون جمجمة الرأس من الدماغ، ثم يتأملون بعودة الـروح إليها؟ أريـد أن أفترض أنّ الروح عادت الى الجثة المحنطة فكيف ستمارس حياتها في جثـة فـارغة من جميع محتوياتها، كيف يمكن لأناس عباقرة من جهة أن يكونوا مجـانين سخفاء من جهة أخـرى.

صونيا: لماذا تعجبين مـن سخف الفـراعنة فكلنا بطريقة أو بأخرى أسخف السخفاء. لو سألت اليـوم أي إنسان لماذا تتزوج وتؤسس أسرة سيجيبك كي أنجب أطفالاً أخلـدّ عبرهم طالما أني لا أستطيع الخـلود عبر نفسي. ولكن هذا الشخص نفسه لو دقق في الأمـور ولم يأخذهـا علـى ظـواهرها، لوجـد ما يقـوله سخفاً، لأن أولادنا يملكون بصمات عين ويـد ونفس غير بصماتنا، ويملكون عقولاً غير عقولنا وأحاسيس غير أحاسيسنا، وبالتالي هم كيانات متكاملة مستقلة حرة وإن كنا نحن السبب بيولوجياً في إنجابهم. من أجـل كل ذلك أنا أميـل الـى ما يقـوله سليمان بأن النفس العاقلة وحدها الخالدة التي لا تعرف المـوت ونحن نخلـدّ عبرها لأنها هي التي تعطينا هويتنا الذاتية هي أنانا التي ترافقنا عبـر الأزمنة والأمكنة الى ما لا نهاية.

يوسف: لو سلمنا بذلك جدلاً فنحن غير قادرين على تذكر حيواتنا السابقة، وما فعلناه في تلك الحيـوات، وما اكتسبناه مـن علم ومعرفة.

سليمان: النفـس العـاقلة لا تنقـل معهـا تفـاصيل أعمـالها وعلـومها وجزئيـاتها المحسوسة إلا نـادراً، والنـادر شـواذ لا يقـاس عليه، ولكنها تجـرد هذه الجـزئيات المحسوسة وتحـولها الى كليات مجردة وتنقل معها ماهية تلك الكليات. سأضرب لك مثلاً على ذلك. نفسك العاقـلة لا تنقـل ما قمت بـه في حياتك الحالية الآن من أعمال كريمة كعطاء محتـاجين ومساعدة مرضى وتقديم منح دراسية، وتبـرع بمبالغ دسمة لمؤسسات إنسانية. نفسك العـاقلة لـن تتذكر تفـاصيل تلك الأعمال بأسماء أشخاصها ومكـانها وزمانها، ولكنها تنقل معها مفهوم الكرم والعطاء وملذات هذا المفهوم ككلية

مجردة الـى الحيوات اللاحقة، فيولـدّ ذلك في نفسك مفهوماً للكرم أكثر نضجاً وعمقاً ودقة مما هـو في نفـوس الآخريـن الذين لم يقوموا بمثل أعمالك.

معنى ذلك أنّ مفهوم الكرم والعطاء يصبح مفهوماً عميقاً دقيقاً مجوهراً بالسعادة في جوهـر نفسك العاقلة بالقـوة، حتى إذا قمت بعمل له صفة الكـرم في حياتك اللاحقة تحـرك هذا الموجـود بالقـوة وبـرز موجوداً بالفعل. أما الإنسان الذي لا يوجد في جوهر نفسه العاقلة مفهوماً واضحاً وعميقاً للكرم والعطـاء فلأنه في حيواته السابقة لم يفعل أفعالاً كريمة معطاءة، فمهما مرّ معه من أحداث في حياته اللاحقة لا يستيقظ عنده مفهوم الكرم والعطاء لأنه ليس موجوداً في جوهر نفسه بالقوة، وهذا يدل أن لا شيء يولـد مـن لا شيء، بـل مـن أشياء قد سبقتـه وهي موجودة بالقوة وتحتاج الى حدث عملاني لكي تبرز من القـوة الى الفعـل.

ناريمان: معنى كلامك هذا أنّ الصديق حسام مثلاً يوجد في نفسه العاقلة آلاف النساء الماجنات، والفتيات المتشوقات الـى الملـذات،ورصيداً مـن الهرج والمرج ليس له حـدود، وما يكتبه في حيـاته الحالية عن النهـود المتوثبة والشفاه المتولهة والأرداف الرجراجة، ليس إلا بـروز ما كان موجـوداً بزبدته في جوهـر نفسه بالقوة، وتجاربه الحالية تبرز ذلك الى الوجـود بالفعـل.

حسـام: أنتم تظلمون الشعر وتمـارسون أعتى العدوانية السادية على الشعراء، عندما يصف الشاعـر جمـال الجسد الإنسـاني وما يحركه في النفس من رغبات وأمنيات، فهـو في الحقيقة يمارس دور الأستاذ الذي يعلم طلابه فنّ رؤية الجمال وتذوقه، وهنا لا أدري إن كنتم تعلمون أو لا تعلمون أنّ تـذوق الجمال يهذب الغرائز ولا يؤججها، ويصقل الأحاسيس ولا يثيـرها. وأنا أعتقد أنّ النقص فـي الشفافية الجمالية عند أبناء هذا الشرق العتيق هـو الذي جعـل أبنـاء هذا الشرق مهووسين يختزنون اللذة بكلمة جنس، وأنا أعـذرهم على ذلك طـالما أنّ ثقافتهم في فـنّ الموسيقى لا تتعدى الطبـل والدفّ والمـزمار، وثقافتهم في حقـل الرسم شبه معدومة وكذلك في فنّ النحت لأن ذلك مربوط بشكل أو بآخر بالأصنام وما نسج حولها من مفاهيم. ماذا بقي من الفنون لأولئك الشرقيين المساكين غيـر جسد المـرأة والتهويمات الجنسية، وهم فـي إقبالهم على جسد المـرأة شوّهـوه ولم يستمتعوا بجماله وبهائـه. لقد رسم لهم أميـر شعراء

الجاهلية امرؤ القيس صورة الجسد الأنثـوي القريب من كمـال الجمـال فـي معلقته المشهورة، وقـال لهم بصورة غير مباشرة لكي تستمتعوا بتذوق هذا الجمال يجب أن تحافظوا عليـه وترعـوه رعاية عقلاء، لا أن تلتهموه وكأنه قطعة لحم ساخنة، ولكن العـرب لم يفهموا من معلقة امـرئ القيس إلا مـا أرادوا هـم أن يفهمـوه لا مـا أراد صاحبها، تمـاماً كما فهمت ناريمان مـن أشعاري ما أرادت هي أن تفهمه لا ما أراد صاحب تلك الأشعـار.

صونيا: أنا شخصياً أضم صوتـي الى ما قـاله حسام بأنّ الفنـون تهذب الغرائز ولا تثيـرها وتصقل الأحاسيس ولا تؤججها، وأؤيـده بأننا بحاجة ماسة الى ثقافة فنية في مختلف أنـواع الفنـون، وأزيـد على حسام فأقـول أنـه إذا لم تكن الغرائـز مهذبـة والأحاسيس مصقولة والعواطف شفـافة لا يستطيع العقل أن يصرخ صرخته الكبرى التي تجعل أهـل الكهف النـائمين منذ مئـات السنوات يستيقظون ليسيروا في موكب الحضارة الإنسانية باتجاه مزيـد من التطور والإرتقاء. بكلام آخر نحن عاجزون عن تحقيـق إنسـانيتنا كأبنـاء حقيقيين لله إذا كانت غـرائزنا بدائيـة وأحاسيسنا أرضيـة ملتصقة بتـراث الـواقع المملـوء بالتناقضات والمفارقات وعقولنا بالكاد تستطيع أن تدرك الجزئيـات فكيف نطلب منها إدراك الكليات المجـردة لتتـواصل بشوق وشغف مع أصلها الإلهـي؟

ميشيل: كل ما قيل حتى الآن، وكل ما سيقال في المستقبل، وفي أي مكان في العالم، وعلـى لسـان أي كان، لا يستطيع أن يبـدد خـوف الإنسان من المـوت، وهلعه كلما تخيل ذلك الشبح الأسود يهجم عليه ليقتلعه من تربة الحياة ويرميه في مستنقع التفسخ والإندثـار والتلاشي، الخوف من الموت برأيي أصعب من الموت نفسه، ولهـذا يجب أن تنصبّ كل الجهـود لمحـاولة حـلّ هذه المشكلـة المستعصية مشكلة الخـوف من المـوت.

حسـام: لا شيء يعطـل إمكانية تحقيق الإنسان لإنسانيته ومحاولة تطويرها للوصول الى مرحلة كمال نـوعها أكثر من الخوف،الخوف ينتزع من الإنسان هويته الإنسانية ليعيـده الـى ما دون مرتبـة الحيـوان، ولهذا يعتبـر واجب جميـع البشـر التكـاتف والتضامن والتعاون لقهـر العدو المشترك الذي هو الخـوف.

يوسف: الخوف هو سايكولوجية العبيد وليس سايكولوجية الأحرار، الإنسان الشريف السيد الحـرّ كيف يسمح للخوف أن يطرق بابه.

سليمان: مـن فمـك أدينـك يـا صديقنا يوسف، أنتم العسكـر لـم تفعلـوا فـي هـذا الشرق، بحجة الدفـاع عـن كرامـة الأرض والمجتمـع، إلا مصادرة عقـول الناس وحرياتهم، وتعللـون ذلك بأنّ صوت المعركة يعلو على كل صوت. فرضتم قوانين طوارئكم وسقتم النـاس الى السجون والمعتقلات بتهم ملفقة بـدون محاكمات وبدون إشراف قضائـي، فهدرتم حقـوق الإنسـان وعبثتم بكرامتـه وحـولتموه الـى مخبر رخيـص لا يملك أدنـى إحساس بالشـرف والكـرامة، حتـى العـلم فـي المـدارس والجامعات حـولتموه الـى آلة تفقيس موظفيـن مطيعيـن مرتهنين وليس الـى تثقيف النـاس وتزويدهم بالعقل المنطقي والعقل النقدي ليصبحوا طلاب معرفة ورواد حقيقة وساعين لتطوير ذواتهم وتطوير مجتمعاتهم.

أنتم العسكر بتحـالفكم مع الإقطاع الدينـي نزعتم مـن رؤوس المتعلمين أي محاولة لتفكير منطقي منهجي عقـلاني وأعدتم الناس الى عبادة الطوطم والصنم والغرق في متاهات الفكـر الغيبي الذي ينتظـر الخـلاص مـن فـوق من المجهول بدل أن يصنع خلاصه بيديه. إن كان للخـوف أسيـاد فأنتم أسيـاد الخوف، وإن كان للرعب ينابيـع فأنتم ينـابيع الرعب، حتى الخـوف من الموت أصبح لا شيء إذا قيس بالخوف من مخبريكم وعسسكم.

حسـام: وعندما يتفشى الخـوف فـي مجتمع ما، يميـل أفراده الى التقوقع والإنطواء واعتـزال أي نشاط إجتماعي، فالخوف يولـدّ عدم الثقة بالنفس وعدم الثقة بالآخرين، يجعـل الإنسان يتصور نفسه مذنبـاً ويتصـور الآخـرين مذنبيـن، يتصـور رغباته وشهواته تحت مطرقـة الفكر الديني الغيبي أعداء في داخله ويحاول أن يقهر أولئك الأعداء بالتفرد والتوحد والتنسك وممارسة الطقوس الفارغة، فيصبح جزءٌ منه عدواً للجـزء الآخـر، وجـزءٌ منـه يخـاف من الجزء الآخر. كذلك بالنسبة الى الآخرين يتصور أي محـاولة منهم للتقرب منه هـي محـاولة منافقة تحمل في أحشائها بذور الطمع فـي ماله أو عياله أو التعدي عليه شخصياً. في هكذا مرحلة لا يبقى للصداقة من معنى ولا للحب مـن تفسير إلا اللذة الجنسية. لهذه الأسباب مجتمعة أنا أقول لكم

أن لا شيء يساهم في تحريـر الناس مـن مرض الخـوف والإرتهان وأخلاق العبيد مثـل الشعر الذي يشجع الآخـرين على تذوق الجمال ومحاولة التواصل معه، ويعلم النــاس كيف يفكرون بأصوات مرتفعة، يعلمهم أنّ سعادتهم هـي الآخرين وأنّ الحبّ هـو وسيلة للتحرر مـن الخـوف والشك والارتياب وعدم الثقــة بالنفس، وأنّ الحبّ الحقيقي يجب أن نعيشه فـي الهـواء الطلـق تحت أشعــة الشمس. في كنف الجماعة وليس في الغـرف المعتمة الرطبة اللزجــة، في كنف التفرد والتقوقع، بالحبّ وتذوق الجمــال والتفكير بأصوات مرتفعة ننتصر على الخوف.

ميشيل: بالموسيقى والتنــاسب والتنــاغم مع موسيقى الطبيعة والأفلاك كما كان يقول فيثاغورس ننتصر على الخـوف.

ناريمان: بالكشف عما فــي نفـوسنا مـن رغبــات مدفونـة وأمـــان مكبوتــة ننتصـر علــى الخـوف.

صونيا: أما الخوف الأكبر الذي هو الخوف من الموت والفناء والغرق في بحر العدم فبماذا ننتصر عليه؟

سليمان: بأن نعتقد إعتقـداً راسخاً لا يأتيــه الشك مـن أمامه أو من ورائه بأننا نملك نفوساً عاقلــة هــي أقباس من نور الله الحيّ الواعي الخالد، وأنّ هذه النفوس كأصلها المنبثقة منه خــالدة غيــر قابلة للفنــاء تحمل معها خلاصة علمها وعملها، وهي حرّة مسؤولة تصنع قـدرها بيديها.

الجميع: العقـلاء الأحـرار المسؤولـون الذيـن يصنعـون أقدارهم بأياديهم هم الذين ينتصرون على الخـوف وهم الذين ينتصرون على المـوت.

كمال يوسف سري الدين